الأهرام ٢١/٧/٢٠٠٥

الأهرام ٣١/٧/٢٠٠٥

أهمية أن نتثقف ياناس

هى عبارة أو بتعبير أدق صرخة تحذير أطلقها كاتبنا المبدع د. يوسف ادريس قبل سنوات طويلة، وكأنما كان يدق ناقوس الخطر او يتنبأ بما هو آت.. صرخة ظل صداها يتردد فى أذنى منذ أن بثت وسائل الاعلام أخبار تفجيرات شرم الشيخ ولم أدر لماذا ظلت تطاردنى طوال اسبوع كامل تكشفت فيه وقائع وتتابعت خلاله الادانات والتحليلات، بل والتبريرات، وإن لم تستطع الأخيرة تحديدا أن تقلل من فداحة الكارثة ولا حجم الغضبة والحزن اللذين اجتاحا الشارع المصرى وترسبا فى الأعماق..

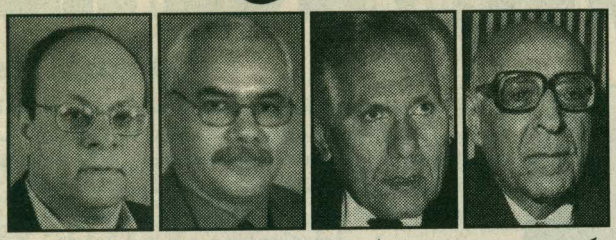

زكى نجيب محمود يوسف ادريس مصطفى النشار وحيد عبد المجيد

سناء صليحة

الحدث معقد.. الأبعاد والأسباب متشابكة.. تحرك أمنى واعلامى واضح وملموس.. أهل الخبرة وأصحاب التخصصات السياسية والأمنية والاقتصادية أقدر بلاشك على فهم وتحليل أبعاد ونتائج الحدث بل وتقديم استراتيجيات لمنع تكراره مستقبلا.. لكن هناك ما هو أبعد من ذلك الحزن او حالة الترقب المتوتر لما قد تحمله الأيام القبلة او تلك الرغبة المحمومة للتحرك رغم غياب البوصلة أو حتى تحديد الاتجاه.. البعض شد الرحال لشرم الشيخ.. المسيرات واللافتات تملأ فضاء المكان.. الكل يرفض .. يعلن أن مصر لن تستباح.. ردود أفعال الكتاب والمثقفين والبسطاء تتتابع عبر شاشات التليفزيون وصفحات الجرائد والمقالات والخطابات التى لم تترك مساحة فى العقل او حتى على سطح المكتب لأى شىء آخر، اللهم إلا استرجاع شريط الحدث وكل السيناريوهات السابقة التى عاشتها مصر منذ السبعينيات وما تلاها من استنفار، وشجب ثم حالة استرخاء أشبه بغيبوبة لا نفيق منها إلا على كارثة جديدة.. من أين تفرز الأرض كل هذا القبح والحقد الأسود والخراب؟! من أى زوايا النفس اشرقت كلماته و اخترقت حجب الذاكرة.. «أهمية أن نتثقف ياناس..» وهل لمثل هذه العبارة البسيطة معنى أو مكان وسط هذا الدمار والخراب؟!

واجهتنى ربما للمرة المليون.. نفس العبارة لكنها فى هذه المرة مسطورة واضحة فى ثنايا مقال أرسله د. مينا عبد الملك أستاذ الرياضيات بالجامعة الأمريكية تعليقا على الارهاب الأسود فى شرم الشيخ، وكأنها لحظة التنوير أو نقطة الارتكاز التى تخرج منها أو تلتقى عندها كل الخيوط لتتبع مساراتها واتجاهاتها.

على مستوى الوعى تسللت كلمات يوسف ادريس وأجندته الأسبوعية التى رصدت بدايات هجمة بدا وكأنها توشك أن تستلب الروح وتقتلع الأخضر واليابس من حياتنا.. جرت أناملى إلى كتب وملفات اكتظت بها الأرفف وضمت خلاصة ما أبدعه كتابنا ومفكرونا.. تجديد الفكر العربى.. ماهية الثقافة.. تاريخ العلم.. ثقافة العنف.. الديمقراطية.. تغييب العقل العربى.. التغيير طريق مصر الى النهضة.. ثقافة التقدم وتحديث مصر.. ماذا حدث للمصريين.. فقه المستقبل.. الاتجاهات الحديثة فى دراسة الصور الذهنية.. وسائل الاتصال والإقناع.. و.و... تقافزت امام عينى الأسماء. د. زكى نجيب محمود.. السيد يس.. د. مصطفى الفقى.. د. أحمد كمال أبو المجد د. وحيد عبد الجيد.. نبيل عبد الفتاح.. صلاح سالم... د. هالة مصطفى .. د. مصطفى النشار... د. سيد عويس.. أحمد جلال أمين.. س. هوفلاند.. صلاح حافظ.. و...و ملايين السطور ومئات من الأسماء رصدت الواقع وحاولت أن تستعيد الضمير الانسانى القادر على التفرقة بين الطيب والخبيث.. سطور أكدت أن بداية الاصلاح والتحديث لن تكون إلا بالاصلاح الثقافى وأن كسر الحلقة الجهنمية الملعونة لايمكن إن يتم إلا بأن نتثقف ياناس على حد تعبير د. يوسف ادريس..

الجميع اجمعوا أن أرضا تحتلها ثقافة التخلف بكل ما فيها من سلبية وتكاسل وارتجال وواسطة ومحسوبية وأمية وخنق للمواهب وانغلاق على الذات وعشوائية وبلبلة وارتكان على العيش بين الكلمات دون الفعل لايمكن أن تثمر.. فى كتابه ثقافة التقدم وتحديث مصر يؤكد د. مصطفى النشار أن تحديث ثقافة المجتمع هو المدخل الحقيقى للتحديث الشامل مشيرا الى أن التحديث السياسى او الاقتصادى او الاجتماعى لايمكن أن يبدأ إلا بالاصلاح الثقافى اذ لاجدوى من المناداة بالاصلاح السياسى مثلا فى مجتمع تسود فيه الثقافة القبلية أو ثقافة التخلف بكل ما تمثله من غوغائية واتكالية ولامبالاة وتردد وخوف وتقليد مظهرى واجترار للماضى وركون للمألوف والمضمون وخوف من المواجهة وغياب للمعايير الموضوعية وافتقاد للصدق والشفافية وركون للواقع اللفظى وانفصال للقول عن الفعل..

كما رصد د. وحيد عبد المجيد فى كتابه «التغيير طريق مصر الى النهضة» أحد اسباب الأزمة عندما تحدث عن غياب الابداع الذى لاتصنعه النخبة، بل ذلك الابداع الذى يمثل اسلوبا للحياة وطريقة لتنظيم وادارة المجتمع ليصبح جزءا من الحياة اليومية لكل مواطن..

أما كاتبنا الكبير صلاح حافظ فقد تساءل ومن خلال صفحة دنيا الثقافة وهو يوصف حالة البلبلة التى يعيشها المواطن العربى تحت تأثير رصاصات الدعاية والمنافسة السياسية والمزاحمة التجارية وعمليات ترويج السياسات وتبرير القرارات والمواقف التى تتم عبر الفضائيات وتؤدى لحالة من تعليب الوعى او على أحسن الفروض تأسيس ثقافة مغايرة لتوجيه العقول وتضليل الجماهير.. قال «لماذا قبلنا بفتح الأسواق ولم نقبل بفتح العقول؟!

ملايين الكلمات والأفكار القادرة على تمهيد أكثر الطرق وعورة ووحشة، لو أنها فقط تحولت لأسلوب حياة.. أهمية أن نتثقف يا ناس لم تكن مجرد صرخة شقت حجب الغيب وتصادف أن تداعت لذاكرتى وذاكرة د. مينا عبد الملك.. أهمية أن نتثقف ضرورة واقع لابد أن تصبح جزءا من زادنا اليومى لاستعادة الانسان والإفلات من دائرة العنف والارهاب والسير للوراء.. لم يعد من سبيل أمامنا إلا استعادة عقولنا وارادة التغيير القادرة على أحداث الفعل وتحريك الساكن، وتبنى موقف ايجابى مستقبلى نابع من ذاتيتنا الثقافية وفنوننا وحضارتنا لاستعادة البوصلة التى توجة سلوك الفرد والمجتمع.. من هنا فإن دنيا الثقافة تطالب باعادة طرح سلسلة كتب التنوير التى تبناها د. سمير سرحان فى بداية تسعينيات القرن الماضى لتقدم أفكار رواد التنوير القدامى والمحدثين لمقاومة الفكر بالفكر.. كما تناشد وسائل الاعلام، وخاصة الوسائل السردية والدرامية القادرة على النفاذ لفكر الجمهور - كما تؤكد كل الدراسات الاعلامية - أن تستعيد دورها لمواجهة ازدواجية المعايير والتعصب الأعمى والمتاجرة بالمقدسات وحالات التقوقع ورفض التفاعل مع الحياة أو اضافة الجديد واستعادة دور المثقف الحقيقى الذى يتفاعل مع الحياة والبشر لتأصيل الثقافة الحقيقية وادراك أنها ليست من كماليات الحياة، بل الوسيلة الأساسية لتجفيف منابع التطرف ومواجهة التحديات...

وأخيرا... استوقفتنى عبارة د. وحيد عبد المجيد فى كتابة الأخير «التغيير طريق مصر الى النهضة» والتى كان يرصد بها المتغيرات السياسية التى يشهدها المجتمع المصرى الآن.. كتب يقول «سيسجل المؤرخون فى قادم السنوات من بين ماسيسجلونه ان عام ٢٠٠٥ لم يكن كغيره من الأعوام، أنه العام الذى وجدت مصر فيه نفسها فى مفترق طريقين... صـ ٨٩»

دونما وعى احتلت العبارة فى عقلى مساحة النقاط فى عبارة د. يوسف ادريس.. مصر فى مفترق طريقين ياناس.. فهل آن الأوان لنتثقف؟!